آفاق
٢

بَسَراب نيكولسكو

العبرمناهجية

بيَان

تقديم: أدونيس

ترجمة: ديمتري أڤيرينوس

مكتبة ايزيس

رؤية جديدة للعالم:
العبر مناهجية

إن سيرورة أفول المدنيات شديدة التعقيد، وهي تضرب بجذورها في ظلمة دامسة. يمكننا بالطبع أن نجد بعدئذٍ تفسيرات وتسويغات عديدة، بدون أن نتوصل إلى تبديد شعور باللاعقلاني يفعل في القلب نفسه من هذه السيرورة. إن الفاعلين في مدنية معينة، من الجماهير الواسعة إلى أصحاب القرار الكبار، حتى وإن استَوْعُوا نوعاً ما سيرورة هذا الأفول، يبدون عاجزين عن إيقاف سقوط مدنيتهم. غير أن هنالك شيئاً واحداً مؤكداً: يترافق سقوط مدنية ما بتباين كبير بين عقليات الفاعلين والضرورات الداخلية لتطور نمط ما للمجتمع. كل شيء يجري وكأن الكائن الداخلي للأفراد الذين يكوِّنون مدنية ما يعجز عن استدماج المعارف والعلوم التي لاتني هذه المدنية ما تُراكِمُها. غير أن الكائن البشري هو الذي يوجد ويجب أن يوجد في المركز من كل مدنية حَرِيَّة بهذا الاسم.

إن النمو الذي لاسابقة له للمعارف في عصرنا يجعل مسألة تكيُّف العقليات بهذه المعارف مسألة مشروعة. والرهان من الخطورة بمكان لأن من شأن التوسع المستمر للمدنية ذات النمط الغربي على السلَّم الكوكبي أن

يجعل سقوطها مكافئاً لحريق كوكبي لاتُعتَبَر الحربان العالميتان الأوليان شيئاً بالقياس إليه.

ليس في الفكر الكلاسي هناك إلا حلاّن للخروج من وضع انحطاطي: الثورة الاجتماعية أو العودة إلى "عصر ذهبي" مفترض.

لقد تم اختبار *الثورة الاجتماعية* إبان القرن المنصرم ونتائجها كانت كارثية. لم يكن *الإنسان الجديد* غير إنسان أجوف بائس. فأياً كانت التدبيرات التجميلية التي لن تلبث أن تطرأ على تصوُّر "الثورة الاجتماعية" في المستقبل، فإنها لن تستطيع أن تمحو من ذاكرتنا الجماعية ما قد اختُبر فعلاً.

أما *العودة إلى العصر الذهبي* فلم تُجرَّب بعد، لسبب بسيط أن العصر الذهبي لم يعاد العثور عليه. وحتى على افتراض أن هذا العصر الذهبي قد وُجد في أزمنة مغرقة في القدم، ينبغي على هذه العودة أن تترافق بالضرورة *بثورة داخلية عقائدية*، هي صورة الثورة الاجتماعية في المرآة. فالأصوليات الدينية التي تغطي وجه الأرض بعباءتها السوداء هي نذير شؤم للعنف وللدم الذي يمكن أن ينسفح من جراء هذه المسخرة للـ"ثورة الداخلية".

لكن ثمة، كما هي الحال دوماً، حل ثالث. هذا الحل الثالث هو موضوع هذا البيان.

يفترض التناغم بين العقليات وبين المعارف سلفاً أن تكون هذه المعارف معقولة وقابلة للفهم. ولكن هل يمكن لفهم ما أن يوجد في عصر البيغ بانغ المناهجي والغلوّ في الاختصاص؟

يصعب تصور حكيم موسوعي من طراز بيكو ديلاميراندولي في عصرنا. إذ إن اختصاصيين في المنهج نفسه يصعب على كل منهما اليوم فهم نتائج الآخر. وهذا ليس من الفظاعة في شيء، من حيث إن الفطنة الجماعية للجماعة المربوطة بهذا المنهج هي التي تدفع به إلى الأمام، إذ ليس من الضروري أن يلمّ دماغ واحد بكل نتائج زملائه من الأدمغة – الأمر الذي يتعذَّر حصوله. ذلك أن هناك اليوم مئات المناهج. فكيف يمكن لفيزيائي نظري في القسيمات أن يتحاور حقاً مع اختصاصي في الفسيولوجيا العصبية، ولرياضي أن يتحاور مع شاعر، ولبيولوجي مع رجل اقتصاد، ولسياسي مع معلوماتي، فيما يتعدى العموميات المبتذلة إلى حد ما؟ ومع ذلك، يجب على *مقرِّر* حقيقي أن يستطيع التحاور معهم جميعاً في آن معاً. تبدو اللغة المناهجية حاجزاً لايستطيع مبتدئ أن يجتازه. وكلنا مبتدئو سوانا. أويكون برج بابل أمراً حتمياً؟

على أن حكيماً من طراز بيكو ديلاميراندولي ممكن التصوُّر في عصرنا على هيئة كمبيوتر فائق يمكن أن تُحقَن فيه معارف كل المناهج قاطبة. وبوسع هذا الكمبيوتر الفائق أن يعرف كل شيء، لكن من غير أن يفهم شيئاً. ومستخدِم هذا الكمبيوتر الفائق لن يكون في وضع أفضل من وضع الكمبيوتر الفائق نفسه. إذ ستكون في متناوله أية نتيجة من أي منهج، لكنه سيكون عاجزاً عن فهم المغزى منها، وأقل من ذلك إيجاد صلات بين نتائج المناهج المختلفة.

إن سيرورة البلبلة هذه لايمكن أن تستمر بدون أن تهدد بالخطر وجودنا نفسه، لأنها تعني أن المقرِّر يصير، على الرغم منه، أقل فأقل كفاءة. وتحديات عصرنا الكبرى، كالتحديات الأخلاقية على سبيل المثال، تتطلب كفاءات أكثر فأكثر. لكن مجموع خيرة الاختصاصيين في مجالاتهم لايمكن أن تولِّد، كما هو واضح، إلا انعدام كفاءة معمَّم، لأن مجموع الكفاءات ليس الكفاءة: إن تقاطع مختلف مجالات العلم، على الصعيد التقني، هو مجموعة خالية. والحال، من هو الحقيق بتولِّي القرار، فردياً كان أو جماعياً، إن لم يكن الفرد القادر على أن يأخذ بالحسبان كل معطيات المشكلة التي يفحص؟

إن الحاجة الماسة إلى *روابط* بين المناهج المختلفة قد تُرجِمت بظهور تعددية المناهج والبينمناهجية حوالى أواسط القرن العشرين.

تختص تعددية المناهج بدراسة عدة مناهج في آن واحد لموضوع واحد يتعلق بالمنهج الواحد نفسه. فعلى سبيل المثال، يمكن دراسة لوحة لجيوتو من منظور تاريخ الفن متقاطعاً مع منظورات الفيزياء والكيمياء وتاريخ الأديان وتاريخ أوروبا والهندسة. أو يمكن دراسة الفلسفة الماركسية من منظور الفلسفة متقاطعاً مع الفيزياء والاقتصاد والتحليل النفسي أو الأدب. وبذلك يخرج الموضوع أغنى بتقاطع عدة مناهج. فتتعمق معرفة الموضوع في المنهج المختص به بما يقدمه مقْتَرَب متعدد المناهج خصب. البحث المتعدد المناهج يقدم شيئاً *أكثر* للمنهج المعني (تاريخ الفن أو الفلسفة، في مثالينا)، لكن هذا "الأكثر" يكون في خدمة هذا المنهج عينه حصراً. بعبارة أخرى،

يتخطى المسعى المتعدد المناهج المناهجَ لكن *غائيته تبقى مندرجة في إطار البحث المناهجي*.

أما *البينمناهجية* فتطمح إلى شيء مختلف عن تعددية المناهج. إنها *تتعلق بنقل الطرائق من منهج إلى آخر*. إن بالإمكان تمييز ثلاث درجات للبينمناهجية: أ. *درجة تطبيق*: تقود طرائق الفيزياء النووية منقولة إلى الطب، على سبيل المثال، إلى ظهور علاجات جديدة للسرطان؛ ب. *درجة إبستمولوجية*: يولد نقل الطرائق من المنطق الصوري إلى مجال الحقوق، على سبيل المثال، تحليلات مهمة في إبستمولوجيا الحقوق؛ ج. *درجة توليد مناهج جديدة*: فعل سبيل المثال، أدى نقل الطرائق الرياضية إلى مجال الفيزياء إلى توليد الفيزياء الرياضية، من فيزياء القسيمات إلى الأستروفيزياء – الكوسمولوجيا الكوانتية؛ ومن الرياضيات إلى الظواهر الأرصادية الجوية أو ظواهر أسواق المال، إلى توليد نظرية الشواش؛ ومن المعلوماتية إلى الفن، إلى توليد الفن المعلوماتي. ومثلها كمثل تعددية المناهج، تتخطى البينمناهجية المناهج، لكن *غائيتها تبقى كذلك مندرجة في البحث المناهجي*. حتى إنها بدرجتها الثالثة تسهم في البيغ بانغ المناهجي.

أما *العبرمناهجية* فهي تختص، كما تشير بادئة "عبر" -trans، إلى ما هو في آن معاً *بين* المناهج، *عبر* المناهج المختلفة، *وفيما يتعدى* كل منهج. وغائيتها *فهم العالم الحاضر*، الذي من مستلزماته وحدة المعرفة.

فهل ثمة شيء بين المناهج وعبرها وفيما يتعدى كل منهج؟ من وجهة نظر الفكر الكلاسي ليس ثمة شيء، لاشيء على الإطلاق. إذ الفضاء المعني فارغ، فارغ تماماً، مثل مكان الفيزياء الكلاسية. وحتى إذا تخلى الفكر الكلاسي عن الرؤية الهرمية للمعرفة، فإنه يعتبر أن كل قطعة من الهرم، متولدة عن البيغ بانغ المناهجي، هرم تام. كل منهج ينادي بأن حقل متاته لاينضب. العبرمناهجية بنظر الفكر الكلاسي عبث لأنها عديمة الموضوع. وبالمقابل، ليس الفكر الكلاسي بنظر العبرمناهجية عبثاً لكن حقل تطبيقه يُعتبر محدوداً.

الفضاء بين المناهج وفيما يتعدى المناهج، في محضر من عدة مستويات للواقع، فضاء مليء، شأنه شأن الفراغ الكوانتي المليء بكل الكمونات: من القسيم الكوانتي إلى المجرات، من الكوارك إلى العناصر الثقيلة التي تُشرِط ظهور الحياة في الكون.

إن البنيان اللامتصل لمستويات الواقع يعيِّن *البنيان اللامتصل للفضاء العبرمناهجي* الذي، بدوره، يفسر لماذا يتميز البحث العبرمناهجي تميزاً جذرياً عن البحث المناهجي، فيما هو يكمِّله. *البحث المناهجي يختص، على الأكثر، بالمستوى الواحد نفسه للواقع*؛ إنه، فضلاً عن ذلك، لايختص في أغلب الأحوال إلا بقطع من المستوى الواحد نفسه للواقع. بالمقابل، فإن *العبرمناهجية تهتم بالدينامية المتولدة بفعل عدة مستويات للواقع في آن معاً*. يمر اكتشاف هذه الدينامية بالضرورة بالمعرفة المناهجية. إن العبرمناهجية، على كونها ليست منهجاً أو منهجاً فائقاً جديداً،

تغتذي بالبحث المناهجي الذي، بدوره، يستنير استنارة جديدة وخصبة بالمعرفة العبرمناهجية. بهذا المعنى، لاتتناقض الأبحاث المناهجية والعبرمناهجية، بل تتكامل.

إن أركان العبرمناهجية الثلاثة – مستويات الواقع، منطق الثالث المشمول، والتعقيد – تعيِّن *طرائقية البحث العبرمناهجي*.

ثمة تواز أخاذ بين الأركان الثلاثة للعبرمناهجية والمصادرات الثلاث للعلم الحديث.

لقد ظلت المصادرات الطرائقية للعلم الحديث هي هي من غاليليه حتى أيامنا هذه، على الرغم من التنوع اللانهائي للطرائق والنظريات والنماذج التي عَبَرت تاريخ المناهج العلمية المختلفة. لكن علماً واحداً يُشبع المصادرات الثلاث إشباعاً تاماً وكلياً: الفيزياء. أما المناهج العلمية الأخرى فلاتشبع المصادرات الطرائقية الثلاث للعلم الحديث إلا إشباعاً جزئياً. على أن غياب تصوير formalisation رياضي صارم لعلم النفس وتاريخ الأديان وحشد من المناهج الأخرى لايقود إلى زوال هذه المناهج من حقل العلم. حتى العلوم المستدقة، كالبيولوجيا الجزيئية، لايمكن أن تطمح، في الوقت الحاضر على الأقل، إلى تصوير رياضي في مثل صرامة التصوير الرياضي للفيزياء. بعبارة أخرى، هناك *درجات في المناهجية* بمقدار ما تؤخذ المصادرات الطرائقية الثلاث للعلم الحديث بالحسبان أخذاً تاماً.

وبالمثل، فإن أخذ الأركان الطرائقية الثلاثة للبحث العبرمناهجي بالحسبان، بمقدار يزيد أو ينقص تماماً، يولد *درجات للعبرمناهجية*

مختلفة. فالبحث العبرمناهجي المقابل لدرجة معينة من العبرمناهجية سيقترب بالحري من تعددية المناهج (كما هي الحال في الأخلاق)؛ والبحث المقابل لدرجة أخرى سيقترب من البينمناهجية (كما هي الحال في الإبستمولوجيا)؛ والبحث المقابل لدرجة أخرى أيضاً سيقترب من المناهجية.

المناهجية وتعددية المناهج والبينمناهجية والعبرمناهجية هي السهام الأربعة للقوس الواحد نفسه: ألاوهو قوس المعرفة.

إن البحث العبرمناهجي، شأنه شأن المناهجية، ليس مناوئاً للبحث المتعدد المناهج والبينمناهجي بل هو مكمِّل له. بيد أن العبرمناهجية متميِّزة تميُّزاً جذرياً عن تعددية المناهج وعن البينمناهجية من حيث غائيتها، ألاوهي فهم العالم الذي يتعذَّر اندراجه في البحث المناهجي. إن غائية تعددية المناهج والبينمناهجية هي البحث المناهجي دوماً. فإذا التبست العبرمناهجية بالبينمناهجية وبتعددية المناهج غالباً (كما تلتبس البينمناهجية غالباً بتعددية المناهج)، فهذا يفسَّر في جزئه الأكبر بأن ثلاثتها تتخطى المناهج. وهذا اللبس مؤذٍ جداً بمقدار ما يواري الغائيات المختلفة لهذه المقتربات الجديدة الثلاثة.

مع الإقرار بالخاصية المتميزة جذرياً للعبرمناهجية بالنسبة إلى المناهجية وتعددية المناهج والبينمناهجية، قد يكون من الخطر بمكان إضفاء صفة الإطلاق على هذا التميُّز، الأمر الذي سيفرغ العبرمناهجية من كل محتواها ويختزل فعاليتها في الفعل إلى العدم.

إن الخاصية التكاملية للمقتربات المناهجية والمتعددة المناهج والبينمناهجية والعبر مناهجية يظهر ظهوراً جلياً، على سبيل المثال، في *مرافقة المحتضرين*. إن هذا المسعى الجديد نسبياً لمدنيتنا لهو من الأهمية بمكان، لأننا، بمقدار ما نعترف بدور موتنا في حياتنا، نكتشف أبعاداً للحياة نفسها ما كانت لتخطر لنا ببال. إن مرافقة المحتضرين لايمكنها أن تستغني عن بحث عبرمناهجي بمقدار ما يتوقف فهم العالم الحاضر على فهم معنى حياتنا ومعنى موتنا في عالمنا هذا.